في افتتاحية أحد أعدادها، والتي ورد فيها: «' مرآة الشرق ' عربية قبل كل شيء. لها ان ترى في هذه الامة العربية ناجحة راقية، وهي لا ترى الى هذا الرقي سبيلاً الاّ بالتمسّك بأسباب هذه المدنية الغربية الصحيحة، والسير وراء ما أنتجته الادمغة الغربية من علم صحيح وأدب راق واقتصاد محض وخلق متين... لذلك، فالمرآة تدعو، دائماً، الى نبذ القديم البالي والأخذ بناضر كل جديد يقود الى الحياة، تدعو الى طرح الاوهام والخزعبلات والتقاليد الميتة والسير وراء العلم الذي لا حياة للأمم بدونه... يقولون ان ' مرآة الشرق ' حكومية، لأنهم لم يصدقوا أن ' مرآة الشرق ' أكثر الجرائد انتقاداً للحكومة، ولكنها، في الوقت نفسه، ترى ان السبيل الوحيد لنجاح هذه الامة هو التفاهم مع الحكومة البريطانية، والتعاون معها في كل مالا يضر بقضية البلاد الاساسية وتقدّمها»(٢٣).

وكانت مدينة حيفا شهدت، في تشرين الاول (اكتوبر) ١٩١٨، تأسيس حزب عربي موالٍ لبريطانيا، كانت غايته السعي من أجل تحقيق نهضة مادية وأدبية في فلسطين، وتوجيه اهتمامات سكانها العرب نحو ميادين الثقافة البريطانية، وحثّهم على تعلّم اللغة الانكليزية. وبالرغم من ان هذا الحزب لم يعمر طويلاً، الا ان التيار السياسي والفكري الذي جسّده بقي حاضراً في إطار الوطنية الفلسطينية، وتجسّد في عدد من الاحزاب الصغيرة، مثل الحزب الحر المعتدل، الذي حمل، فيما بعد، اسم الحزب الوطني. وقد عبّرت جريدة «مرآة الشرق» صراحة عن سياسة التعاون مع بريطانيا، التي دعا اليها هذا التيار، وجاهرت بكلمتها المشهورة «خذ وطالب». ففي عددها الصادر في ٢٠ أيلول (سبتمبر) ١٩٢٨، أي بعد أشهر قليلة من انعقاد المؤتمر العربي الفلسطيني السادس، الذي دعا الى مهادنة بريطانيا وكاد يطالب بقيام حكومة وطنية في ظل الانتداب، كتب صاحبها بولس شحادة مقالاً، جاء فيه: «اذا كنا نفخر بشيء واحد هو ان ' المرآة ' لم تحد عن الخطة التي رسمتها منذ صدور العدد الاول منها. قلنا يومئذٍ... ان التفاهم مع الحكومة يجب ان يكون الاساس في سياسة هذه البلاد على مبدأ ' خذ وطالب ' . وها قد برهنت الايام بصدق نظريتنا، وأخذ السواد الاعظم من أبناء هذه الامة يقولون بها ويعملون على تحقيقها... ونحن، نصرح اليوم بما صرحنا به قبلاً: ان السياسة المثلى هي التفاهم مع الحكومة والدخول الى نفس الدار، بدلاً من ان نقاتلها ونحن خارج الدار، واقفون في البرد شتاء و[في] الحر صيفاً»(٢٤).

الحركة الشيوعية والاستعمار

بقي التأثير، السياسي والفكري، للشيوعية ضعيفاً على العرب الفلسطينيين، طوال مرحلة العشرينات، نتيجة نشأة الحركة الشيوعية بين صفوف المهاجرين اليهود الثوريين، الذين عجزوا، لاعتبارات موضوعية وذاتية، عن الانفتاح على الوسط العربي واقامة علاقات وثيقة مع جماهير الكادحين العرب. وعلى عكس بعض قيادات الحركات الوطنية التحررية في المشرق والمغرب العربيين، التي تأثرت، الى حد ما، بأفكار ثورة اكتوبر في روسيا وسعت الى الحصول على دعم السلطة السوفياتية لنضالها ضد الاستعمار الغربي، فان قيادة الحركة الوطنية العربية في فلسطين لم تنشد، أبداً، الى أفكار هذه الثورة، ولم تسع، مطلقاً، الى الاتصال بالسلطة السوفياتية، بالرغم من مواقف التأييد الواضحة التي اتخذتها هذه الاخيرة تجاه مطالب العرب التحررية وادانتها لنظام الانتدابات الاستعماري. بل ذهبت قيادة الحركة الوطنية العربية في فلسطين الى حد تحذير حكومة الانتداب البريطاني من «مخاطر الشيوعية» على مستقبل البلاد، في ظل استمرار المهاجرين الثوريين اليهود في زرع بذور البلشفية في فلسطين، كما فعلت خلال الصدامات الدامية التي اندلعت في مدينة يافا